ديوان عبد المطلب

بقلم

مهدى علام

استاذ التربية بدار العلوم

مقدمة :

كان عبد المطلب رجلا بدويا بفطرته ، حضرياً ببيئته . وقد اعتورته تلك البداوة وهذه الحضارة . وتنازعتاه زمنا ، كل منهما تريد أن تستأثر به لنفسها ، وتخضعه لسلطانها ؛ ولكن عبد المطلب فى قوته وصلابته قد أخضعهما جميعا لحياته ، فلاءم بينهما ملاءمة ، وأخرج منهما مزيجا امتاز به على سائر لداته : فكان البدوى الحضرى فى مأكله ومشربه ، وملبسه ، ومسكنه ، ومركبه ؛ ثم ظهر أثر ذلك كله فى شعره . فكان بذلك مدرسة مستقلة فى الأدب العربى ـ مستقلة عن الشعر العصرى لأن صدى البادية يتردد فى أنحاء شعره فى الخيال والمعنى واللفظ . ومستقلة عن الشعر العريق لأن صور المدنية فى شيخوخة القرن التاسع عشر والثلث الاول من القرن العشرين قد انعكست على مرآة شعره ، وإن سترها فى بعض الأحيان أسلوبه البدوى .

لقد أكل عبد المطلب متربعا على سماط البادية ، كما جلس إلى مائدة المدينة ، فجعل من ذلك كله صورة بين هذه وتلك هى التى وصفها إذ يقول (ص ٩٢)

ولو ترى ، إذترى ، طعام العشاء تجرى به الجوارى

من كل رومية كعاب شفافة الثوب والإزار
يمشين حول الخوان رهوا مشى المعنّى من الإسار
فتلك فى كفها حَنيذ على إناء من النضار
وتلك من خلفها بصحن عليه حوت من البَهار
وتلك من خلفهن عجلى تحمل شيئا من الثمار
وكم وكم ثَم من صنوف فى العد جلت عن انحصار !

أليست هذه المائدة التى يصفها عبد المطلب مائدة بدوية تخطو متئدة نحو المدنية ؟ لم ينس عبد المطلب « الحنيذ » ولكنه وضعه على إناء من النضار ، وذكر الفاكهة — وهى للبدوى ترف يدل عليه اشتقاق لفظها — ولكنه لم يسرف بل كان قانعا « بشىء من الثمار » . ثم هو يصف لنا جوارى المائدة حتى ليكاد ينقلنا إلى فندق من فنادق لندن أو باريس .

ولقد كان عبد المطلب يتزيا بالثياب العربية ، وكان بها مشغوفا فخوراً، وعليها محافظا حريصا ، ولكنه لم يغلق عينيه عن مستحدثات الحضارة فى ذلك الزى ، فقد ارتدى « الدثار » كما ارتدى « الجبة » على حين أن بعض أشياخنا من لداته وزملائه مابرحوا يحافظون على جبابهم وعباءاتهم حتى اليوم، فكان بذلك وفيا لمذهبه فى الجمع بين القديم والجديد ، وكلنا يذكر دثاره العريق الذى جمع فيه بين التفصيل الحديث ، والصوف البلدى الذهبى اللون ، الذى يذكرنا بقول الشاعر البدوى :

حيكت على نيرين إذ تحاك تختبط الشوك ولاتشاك

وكأنما عبر عبد المطلب عن حالته هذه فى الحرص على القديم مع اقتباس الجديد بقوله ينعى على أدعياء الأدب إذ يدعون إلى اطراح القديم (ص ٢١٩) :

مازوا الجديد من القديم.وما دروا أن الجديد من القديم سليل
... ...

مافى القـديم معابة إن لم يكن فيه عن السنن السوى عدول
وذر الجديد إذا رأيت سبيله عوجا عن الحق المبين تميـــل

وبقوله يتحدث عن اللغة العربية (ص ٢٢١)

من لم يحط بقديمها لم يعتقد علما بمجد الشرق ، وهوأثيل
وخذى المعانى فى جمال جديدها ماشئت لاحرج ولا تخذيل

ولقد رأينا عبد المطلب فى مسكنه يخضع كذلك لمذهبه فى الجمع بين القـديم والجديد ، فقد سكن قلب القاهرة حقبة طويله من الزمن ، ثم انتقل إلى « مصر الجديدة » فى أعوامه الأخيرة . ولعل من أول الدلائل على عدم اندفاعه وراء الجديد ، وإبقائه على القديم أنه كان ، وهو يقيم فى تلك الضاحية الجميلة، يحمل معه من القاهرة فى سيارته كل يوم مايحتاج إليه من الماء ، لأن ماء « مصر الجديدة » لم يلق لديه قبولا . فكم مرة ركبت معه وأمامنا صفائح الماء وزجاجاته استبدالها بالمزاود والقرب ، كما استبدل فى حملها بالابل السيارة ! تلك لعمرى صورة عجيبة حقا ، ولـكنها صادقة صدقا ، فى تصوير عبد المطلب ونزعاته الشعرية .

ولم تـكن تلك السيارة أولى مطاياه ، فقد كان عبد المطلب فى مركبه وفيا لنظريته ، فقد بدأ حياته يمتطى حماراً ، حماراً سعيدا .

لوأراد الإله فى البهم رسلا كان فى أمـــة الحمير نبيا

فقد كان يركبه إلى دار العلوم ، وهناك فى شارع المنيرة يربط الحمار إلى شجرة من أشجار الشارع أمام المدرسة حتى ينتهى الشيخ من محاضرته فيمتطيه ويقفل راجعا . بل إن عبد المطلب كان يركب العيس فى ريف مصر ، العيس التى لم ينسها ، أو كان لاينساها ، فى قصيدة من قصائده . ولـكن الشيخ لم يغفل عن مطايا المدنية الحديثة ، ولم يغض من شأنها ، ولم يفضل عليها الإبل ، بل أشاد بذكرها فى شعره ، وركب متنها فى حياته . فلقد

استبدل الشيخ بحماره سيارة ، سيارته الأولى التى أراد أن تكون قنطرة انتقالية من ذوات الحوافر الأربع ، إلى ذوات العجلات الأربع . وبذلك كان وفيا مرة أخرى لمذهبه فى الجمع بين القديم والجديد ، فلم يظفر بالانتقال من ظهر حماره إلى مقعد وثير فى سيارة فخمة ، بل تخذ تلك السيارة «الانتقالية» حقبة جرب فيها الجديد حتى أنس به واقتنع بصلاحيته ثم هجرها إلى سيارة فخمة لازمها حتى يومه الأخير . ولقد ظهر ذلك كله فى شعره . فوصف السيارة والقطار البخارى ، والطيارة والكهرباء الخ. استمع إليه حين يودع صديقه الأستاذ الشيخ عبد الرحمن قراعه فى سنة ١٩٠٥ ، وهو زمن لم تكن السيارات فيه قد أزعجتنا أبواقها حتى تفرض نفسها على خيالنا ، قال فى صفحة ٢٩٥ :

ولى فى بطون البيد نهج إلى العلا وفوق متون الناجيات أمانى !
وما نغم الحادين إلا مثالث يغنى بها واعى العلا ومثانى
على أنها عندى زواجر لوعة تحرض أشجانى على الثوران

ثم استمع إليه يصف عيش الأغنياء (ص ٩١)

تلألأ الكهرباء فيه تلألأ الكنس الجوارى
كأنه ، والظلام ساج من حوله ، آية النهار
ومركب كالنسيم يجرى على الثرى آمن العثار
لا خيل تعدو به ولكن حييت يادولة البخار

أو فاستمع إليه يصف جيش الدولة العثمانية وهو يهنئ السلطان عبد الحميد بعيد الدستور (ص ٩٤) :

حتى إذا طمع العدو ، ورابه سكتات ليثهما عن التزآر
سبق البخار إليهما عن أمره سبق الشهاب لمارج من نار
يطوى على عجل فيافى قَبْلَه بعدت على طيف الخيال السارى

«باء» البخار لقد علمنا أصبحت في شرعة التاريخ «فاء» فخار

ولعل أجمل وصف له في البخار قوله في وداع صديقه الشيخ عبد القادر المغربي الطرابلسي عام إعلان الدستور التركي (ص ١٣٩) :

وقلبا تولاه الأسى ، كلما هفا بمسمعه ذكر البخار تفزّعا
فياقاتل الله البخار ، كم اعتدى على شمل قوم جامع فتقطعا !
إذا ما شكا قبلى من العيش موجع شكوت قطار البرّ أدهم أسفَعا
فمن سائر ينقض في البيد زائراً فتحسبه طيفاً من الجن مُفزعا
تراه ، إذا أرسلته في مفازة إلى قطعها ، من خاطر النفس أسرعا
وينقض في البيداء يعلو عجاجه كما عصفت ريح من الغرب زعزعا
كأن نجوم الليل حال ادّلاجه من الوحش سرب مقبل مدبر معا

وكما وصف عبد المطلب السيارة والقاطرة البخارية ، وصف كذلك السفينة البخارية ، والطائرة والكهرباء . ففي القصيدة السابقة ، وعقب الأبيات التي رويناها يقول واصفاً السفينة : —

وسابحة يعنو لها البحر هيبة ويمسى سحاب الجو منها مروّعا
كأن حِفافيها قوادم أربد بحيزومه نحو المجرة أتلعا
تطيح جبالُ الموج تحت لَبانها كما طاح رضوى أو ثبير تصدعا
وتلهو بمخضرّ العباب كما لهت سوامٌ بمُخْضَلّ من الروض أمرعا
ترى في رُغاء البحر في جنباتها فتى شيبت منه الحوادث قُنزُعا
تَميَّسُ بالهوج الرياح دعابة كما ماس غصن بالنسيم ترعرعا

ويقول في وصف الطائرة ، في استقباله الطائرين التركيين (ص٩٥)

وقفت لك الدنيا فسيرى مسرى الضياء من الأثير
يا أخت سابحة النجو م ، وبنت سانحة الضمير
... ...

أفأنت وافـــدة البخا ... ر على الأجادل والنسور ؟
ثارت لتأخـذ باسمه ... عهدا على ملك الطيور
ملك البخار على السّما ... ك بصولة الملك القدير
... ...
فالنجم فى فرق يجو ... ل بجفن مرتاع حسير
والسحب من حذر البخا ... ر وبأسه حيرى المسير
... ...
أهـــلا بمعلية « الهلا ... ل » على الكواكب والبدور

ومن أجمل ما قاله صاحب الديوان فى وصف الطائرة مطلعاه فى العلويتين العلوية الأولى (ص ٢٦٨) والعلوية الكاملة (ص ٢٣٠) قال فى الأولى :

أصغر الأرض وما فيها مقاماً ... فاعتلى يضرب فى السحب الخياما
حسد الطير على الجو فسَرْ ... عان ما حلق فى الجو وحاما
يزجر الريح فتجرى تحته ... أينما ولى بها تلوى الزماما
سابحاً فوق ابنة النار على ... مسرح النجم جنوباً وشآما
فإذا شاء أسفّت فى الثرى ... وإذا شاء بها شق الغماما
أحْوَذِيّات إذا ما هزّمت ... تملأ الأفق رُغاء واهتزاما
سفن فى الجو إلا أنها ... فى السرى تطويه كالطيف لماما
ليت شعرى أين يبغى بعد ما ... غلب النسرَ عليها والحماما
يا خليلى احملانى فوقها ... علنى ألقى على السحب « الإماما »

وقد حوّم فى مطلع علويته الكاملة حول هـذه المعانى نفسها ، وبالألفاظ عينها إذ يقول :

أرى ابن الأرض أصغرها مقاماً ... فهل جعل النجوم بها مراما ؟ الخ

أما بعد فهذا منهج عبد المطلب فى شعره ، لو لم نزد عليه كلمة لكان تلخيصاً دقيقاً لمذهبه فى الشعر ، وصورة واضحة لما أودعه ديوانه . غير أننا نرى لزاماً علينا ، وإنصافاً للشيخ ، أن نلم إلماماً موجزاً ببعض الأبواب التى طرقها الشاعر ، لنبدى فيها رأينا .

الأدب المستعار :

يصطدم قارئ هذا الديوان فى أولى خطواته بنوع من الشعر أسميه « الأدب المستعار » وهو أن يقول الشاعر على لسان غيره شعراً فى شأن من الشئون التى لا يخفق لها قلبه ، ولا تستقر فى يقينه . فثانى قصيدة يرويها لنا الديوان ، فى الصفحة الثالثة ، يقول الشاعر فى مقدمتها : « وفى سنة ١٩١٤ كان بين المرحوم اسماعيل أباظه باشا وبين ابن أخيه محمد بك سليمان أباظه جفاء ، فطلب إلىّ الباشا أن أعاتبه على لسانه فقلت » . وفى الصفحة الخامسة نرى قصيدة فى استقبال عدلى يكن باشا عند عودته من انجلتره بعد انقطاع مفاوضته سنة ١٩٢١ ولم يذكر لنا الشاعر أن هذه القصيدة من « الأدب المستعار » ولكننا نعلم أنه أريد عليها فخضع لداعى المجاملة أكثر مما خضع لواجب عقيدته . وفى ص ٦٢ يقول صاحب الديوان : « عتاب لبعض الرؤساء على لسان بعض الأصدقاء سنة ١٩٠١ » وفى ص ٨٦ يقول : على لسان حضرة على الكيلانى بك ناظر مدرسة سوهاج الأميرية ، تهنئة الأستاذ الكبير الشيخ أبى الوفاء شرقاوى بحجه وقدومه سنة ١٩٠٠ » ، وفى ص ٣١٤ يقول قصيدة « على لسان بعضهم ، استعطاف لسابا باشا مدير البريد » وفى ص ٣١٥ يقول : كتبت تهنئة بمولودة اسمها عليه على لسان بعض الأصدقاء سنة ١٩٠١ »

وأنا أريد ان أقف لدى هذا الضرب من الشعر وقفة قصيرة أعلل

فيها نشأة هذا الأدب ، وأذكر فيها قيمته الفنية . إن هذا الشعر المستعار — أو على الأصح المعار — يدل ، إذ يظهر فى أمة من الأمم على أمرين: أحدهما الأمية الشعرية ، أو فقدان الشعر من حيث هو قوة من قوى التعبير عن النفس ، وثانيهما رفعة الشعر وعلو شأوه فى تلك الجماعة . فانتشار الأمية الشعرية فى المجتمع يدعو إلى استعارة الألسنة الناطقة ، كما يدعو انتشار الأمية الخطية إلى استعارة الأقلام الكاتبة ، على مثال ما كنا نجده — وما لانزال نجده — فى الجواسق الصغيرة المقامة على الأطورة (الأرصفة) خارج المحاكم ، وفى الصيارف ، وطلبة العلم المخفقين ، فى قرى الريف . وشعور الناس بحاجتهم إلى التعبير الشعرى عن أفكارهم — وأحياناً عن أفكار تخلقهم — دليل على أن للشعر منزلة رفيعة بينهم ، ولولا ذلك ما كلفوا أنفسهم ذلة الاستعارة ، وسجلوا على أنفسهم العى والحصر . هذا هو فى رأيى ، سبب حياة هذا « الأدب المستعار » الذى لا يعيش - عادة - إلا فى مجتمع لم تطغ عليه المادية طغيانا ينسيه جمال التعبير الروحى فى نغمات الشعر ، ولم يرتق مع ذلك فى الحياة الأدبية رقيا يقدر أفراده على ذلك التعبير كلا عن نفسه ، ويغنيهم عن استعارة بعضهم ألسنة بعض

أما القيمة الفنية لهذا « الشعر المستعار » فتحتاج إلى قدر من التؤدة . فأنا أعلم أن النقاد الآن يسمون هذا الشعر زائفا كاذبا . وما فى هذا أريد أن أخالفهم ، أو بعبارة أدق : أنا أكاد لا أخالفهم فى أنه شعر كاذب زائف . ولكن الذى أريد أن أكشف عنه هنا هو أن قدرا من الصدق قد يظهر فى ثنايا هذا الكذب ، وشيئا من المعدن الكريم قد يلمع فى وسط ذلك الزيف . فكثيراً ما يكون لدى الشاعر ما يسميه العلامة فرويد « الرغبات المحتبسة » فى العقل الباطن فينتهز فرصة القول فى غرض من الأغراض المستعارة ليعبر عن تلك الرغبات فيفكها من عقالها ، ويطلقها

من محبسها . وعند ذلك نقول إن الشاعر استطاع أن يتقمص الحالة الجديدة ، كما يحدث للممثل أن ينسى شخصيته فى الدور الذى يمثله . ففى أولى قصائد « الشعر المستعار » فى ديوان عبد المطلب نسمعه يقول ، لا عن لسان من رغب إليه ، ولكن بلسانه هو ، ومن يقينه هو :

إن الكريم إذا ما اهتاجه غضب ... لم يلوه عن طريق الحكمة الغضب
اللهَ فى الود والقربى ، فإن لها ... حقاً على الناس جاءتنا به الكتب

وفى ثانى القصيدتين ظهرت « الرغبات المحتبسة » بصورة أقوى ، فقد كان هوى عبد المطلب فى ناحية ، والمرحوم عدلى يكن فى ناحية أخرى ، وكان الخلاف بين عدلى وسعد إذ ذاك بالغاً أشده ، ولكنا مع ذلك نرى عبد المطلب قد غلبه عقله الباطن فقال :

قالوا : السلام ، فقام قائدنا ... يزجى إلى حلباته النجبا
ولرب سانحة إذا عرضت ... صدق الكذوب وجدّ من لعبا
فدعوه إذ برموا بصاحبه ... ظنوه يرضى ما أخوه أبى
ظنوا وزير النيل يخلبه ... لمع السياسة بين من خلبا

أما ثالثة القصائد « المستعارة » فثالثة الأثافى . فهنا لم يكن للشاعر « رغبة محتبسة » تطلب الحرية ، ولذلك جاءت القصيدة غثة بالية ، أى جمال ، فى المعنى ، أو الخيال ، فيما يقول عبد المطلب ، فى ذلك العتاب الزائف :

مولاى عنى صدا ... وهو الحبيب المفدى
ما كنت أحسب دهرا ... لنا يغير عهدا
ولا يحول حالا ... ولا يدنس ودا
... ...
مضت ليال أرتنا ... عيش المودة رغدا
بالصفو كانت رياضا ... تفوح عطراً وندا

حال الزمان فعادت لنا كواح لُدا

واست أجد تعليقا على هذا « النظم » أبلغ مما قال عبد المطلب نفسه متهكما (ص ٢٢٥).

إذا وازنوا بيتا على النظم صفقوا وما الشعر فى مستفعل وفعول

أما القصيدتان الباقيتان من شعر عبد المطلب «المستعار» فانى أرى من حرمة ذكراه ألا أقتبس منهما شيئا.

الشعر الصادق

ولئن كان عبد المطلب قد تورط، فى أحيان قليلة، (رأينا أنها لم تتجاوز خمس قصائد) فأعار شعره، لقد كان عبد المطلب الشاعر الصادق والوفى الأمين. يبدو ذلك فى كل شعره، ويبدو بصفة خاصة فى شعره لإخوانه وفى وطنه. وخير نموذج أقدمه لشعره الصادق فى الأخوة ماقاله فى الشوق لصديقه الأستاذ الشيخ عبد الرحمن قراعه، وكانت بينهما آصرة الصداقة طاهرة قوية، وقد عبر عنها كل منهما بشعر جيد مليح. ومن حضر حفل التأبين الذى أقيم لعبد المطلب يذكر أنه رأى شيخاً وقوراً يرأس الحفل، قد حنت السنون ظهره، ولكنها لم تحن قلبه، وهزت الشيخوخة يديه، ولكنها لم تزعزع إخلاصه. ذلك هو الشيخ قراعة الذى كتب إليه عبد المطلب، وقد نقل الشيخ من سوهاج إلى أسوان (ص ١٢١).

« أمر على الديار ديار ليلى » فتسبق أدمعى حمراً غزاراً
وأذكر جيرة ظعنوا فاحنوا «أقبل ذا الجدار وذا الجدارا»
« وما حب الديار شغفن قلبى » فيطفىء لثمها ذاك الأوارا
ولا لثم الطلول أسال دمعى «ولكن حب من سكن الديارا»

فأجابه الشيخ قراءة :

أقضى الوقت أجمعه ادكاراً   لمن عنهم ترحلت اضطراراً
وأطفىء بالمدامع نار قلبى   فتذكى أدمعى فى القلب ناراً
... ...
ليهنك أن عهدك عهد صدق   وأنك خير من حفظ الذمارا
وأنك إن تمر بدار ليلى   أُحادَ فقد مررت بها مراراً
أمر بخاطرى ، ومناى أنى   «أقبل ذا الجدار وذا الجدارا»
«وما حب الديار شغفن قلبى»   فأسمح بالدموع لها نثارا
وما همى الركون إلى الأمانى   «ولكن حب من سكن الديارا»

ويستوقفنى فى قطعة الشيخ قراءة بيته الذى يقول :

وأطفىء بالمدامع نار قلبى   فتذكى أدمعى فى القلب ناراً

فقد عبر الشيخ عن أحدث نظرية فى علم النفس عن نشأة الوجدان ، تلك هى نظرية « جِمْس — لَنْج » . فرأى الجمهور من علماء النفس على أن الوجدان ينشأ نفسياً ثم يبدو على أعضاء الجسم من بكاء ، أو ضحك ، أو احتقان للدم ، أو انتفاخ فى الأوداج الخ ، ورأى كل من جمس ولنج ، على عكس ذلك ، هو أن الوجدان ينشأ فى أعضاء الجسم ثم يتبعه الجيشان النفسى . وتعرف النظرية الأولى باسم « النظرية النفسية » والثانية باسم «النظرية العضويه» . وليس هنا موضع الإفاضة فى أدلة كل من النظريتين ولكننى أرى الشيخ قد أضاف دليلا إلى أدلة « النظرية العضوية » إذ يقول :

وأطفىء بالمدامع نار قلبى   فتذكى أدمعى فى القلب نارا

عبد المطلب الشاعر المصرى

لقد عاش عبد المطلب فى جزيرة العرب بلسانه دائماً، وبخياله فى كثير من الأحيان، ولكنه عاش بقلبه فى مصر لم يبرحها فى يوم من الأيام. أليس بعض ماقال فيها قصيدته التائية (ص ٣٣) التى مطلعها :

مصر أمى، فداء أمى حياتى . سلمت أمنا من العاديات !
يارياح الحياة فى مصر هبى روحينا بطيب ريا الحياة .
ياسماء الحياة فى مصر جودى أنفسا فوق نيلها صاديات .
ما لأم الأمصار حملها الدهـــر صنوف الآلام والموجعات ؟

وقد أنشد هذه القصيدة فى حفلة لتربية الطفل حضرها فيمن حضر خمسمائة وألف سيدة. وأذكر أنى سمعته ليلتئذ فما سمعت أرق منه لفظا ولا أجمل أسلوبا، ولا آخذ بمجامع القلوب. ولقد فاجأتنا يومئذ عذوبة القصيدة وسهولتها ورقتها، فكدنا نعتقد أن عبد المطلب، الشاعر البدوى، لا يستطيع أن يقول مثلها. ولكن كذلك كان عبد المطلب : عربى بدوى إذا شاء، وشاعر حضرى إذا أراد. وما أصدقه إذ يقول فى الاحتفال بالعيد « الخمسينى » لدار العلوم (ص ٢٢٠)

دان القريض لنا، فأما روضه فجنى، وأما صعبه فذلول
ولنا إذا شئنا جزالة جرول وإذا نرق فتوبة وجميل

وما أكثر قصائده، وما أطولها، وما أبلغها، تلك التى حيا فيها مليك البلاد، ودار النيابة، وزعماء الوطن، وتغنى فيها بمجد مصر القديم عامة، وبعظمة « توت عنخ آمون » خاصة ! استمع إليه حين يحيى مليك النيل المعظم (ص ١٠) :

وإذا الوجوه المسفرات تدفقت بشراً على القسمات، فهو إهاب

وإذا العيون من المهابة خشع وإذا القلوب من السرور طراب
وإذا المليك بدا يحي قومه فتواصل التهليل والترحاب
ودعا لحيا المجلسين ، وسلموا عند التحية . والدعاء جواب

أو فاستمع إليه يخاطب « توت عنخ أمون » (ص ٨) :

غاليت فى كتمان رمسك جاهداً كيلا تحيط بعلمه الأعقاب
ياطالما كذبت قوماً حاولوا أن يعلموك منقبين فخابوا !
حتى رأيت بلاد ملكك أصبحت بالجهل ترمى ، والهوان تعاب
أدنيت رائدهم ليشهد أننا للملك قبل وجودهم أرباب
وأذنت للمتعرفين ، لعلما عرفوا لقومك حقهم فأنابوا
أتراه حين رآك قام بما قضت قدما به العادات والآداب ؟
ورأى جلال الموت زادك هيبة جثثا ، ومثلك فى الضريح يهاب
أم راح فى صلف عليك ، فلم يرم حتى هوى أجل به وكتاب ؟

وما أجمل مايقول بعد أبيات :

فرعون أورث « أحمد » استقلاله فالملك ملك . والجناب جناب
ما إن يضير العرش أن تتغير الـ أسماء من أهليه والألقاب

ولعل فى قصيدته القافية وأبياتها ثمان ومائتان ما يقنعنا بتعلق الشاعر بوطنه وفيها يقول يعير الحلفاء بهزيمتهم فى إحدى المواقع :

كأنى بهم يوم البحيرات كبهم بهاجيش « هندنبرج » من كل مزلق
جنود تروع الليل أنزلها الردى ضيوفا على الحيتان فى شر فندق

... ...

هل الحرب إلا ماعلمتم وذقتمو وما هو عنها بالحديث المزوق

المعانى البكر

إن قيمة الشاعر تعتمد على مقدار ما استحدث من أفكار ، وما

ابتكر من معان ، إلى جانب ثروته اللفظية . فهو فى هذا كالعالم المؤلف إذ لم يزد على آراء من سبقوه كان محسوبا مع العلماء وليس منهم . ولعبد المطلب معانٍ وأخيلة بعضها جديد وبعضها نصف جديد ، وكلها حسن جميل . ولقد روينا بعضها فيما روينا ، ولكننى أضن بقطعة أو قطعتين ألا تذكرا على سبيل التخصيص . فقد قال فى رثاء المرحوم الشيخ على يوسف ، وقد غاض النيل عامئذ ، فاتخذ من ذلك مادة لحسن التعليل إذ يقول (ص ٦٩) :

حييت حياة الماجدين ، فإن تمت فإنك فى طى الضمائر مخلد .
إذا جزعت «جرجا» فما كل من بكت «على» ولا كل امرىء فاد سيد .
ألم تر أن النيل قاسم أهلها حداداً ، فواديها من النبت أجرد ؟
فلولا حداد النيل فيها لما ضفا على أرضها ثوب من المحل أسود .

وله فى رثاء المرحوم عاطف بركات باشا أبيات عيون ، فمن ذلك قوله :

يقولون : أودى ربها غير مخلف بنين على آثارها وبنات
رويدكم ، إن الحجا يلد الحجا ولا عقم إلا فى نهى وحصاة
وقد ينفد المسك الذكى معقباً سواطع من أرواحه عطرات
ومن مات من أهل العلا خالع العلا على ملأ من قومه وسراة
ومن يفن فى نشر المعارف يحى فى أساتذة رباهم وهداة
ومنذ الذى ربى كأبناء عاطف أئمة هدى ، أو عدول قضاة ؟

ومن أقوى مطالعه قوله فى رثاء المرحوم فتحي زغلول باشا (٣٠٦)

أرى الشعر يدمى بالدموع المآقيا كفى حزناً أن تسمع الشعر باكيا !
دعونا القوافى أن يكنّ تهانيا فجئن على رغم الأمانى مراثيا .

ومن العجيب أن له قصيدة فى رثاء المرحوم سعد زغلول باشا تبلغ ستة ومائة بيت ، ولكن لم يرقنى منها إلا بيت واحد — أو على الأصح شطر من بيت هو قوله (ص ٥٩) :

أهابوا بالزمان فروعوه وأجفلت الحوادث حين صاحوا .

منطق الشعر :

وأقل درجات المنطق ألا يناقض المرء نفسه ، ومن العيب ألا يصدر الشاعر عن فكرة واحدة فى شعره كله ، أما أن يناقض نفسه فى القصيدة الواحدة فذلك أشد عيبا . وهو خطأ شبه طبيعى عند الشعراء ولا سيما عند ما « يقولون مالا يفعلون » . وأشهد ان اخطاء عبد المطلب فى هذا الباب قليلة بل نادرة ، ولكننى لا أستطيع أن أتغافل عن مناقضته نفسه فى غزله الذى صدر به قصيدته الكافية التى يعارض فيها ابن هانىء فى قصيدته التى مطلعها

فتكات لحظك أم سيوف أبيك وكئوس خمر أم مراشف فيك ؟

قال عبد المطلب (ص ١٧٦) :

حسبوك صادقة ولو علموا بما حملتنى بالغدر ماحسبوك

أحللتنى ربعا بقلبك شركة وحللت فى قلبى بغير شريك

هـذا هو وصف الحبيبة : غادرة بعشيقها ، كاذبة فى حبها ، منافقة فى قلبها ، تكاد تكون عاهرا ؛ ولكنه بعد ثلاثة أبيات يقول فيها :

يابيضة الخدر المنيع ، أما كفى خديك قانى دمعى المسفوك ؟

ولقد نقبل بعد الأوصاف السابقة أى وصف إلا « بيضة الخدر » العفيفة المحجبة التى لاتتسامى الأنظار إليها . ومن الإنصاف أن نقول إن تعليل ذلك التناقض الشبيه بالطبيعى يرجع إلى أن الشاعر لايتحدث عن حبيبة حقيقية — إذن لكان يصف وصفا صادقا غير متناقض ، فهى إما غادرة منافقة ، وإما بيضة خدر محجبة — وإنما يرسل بالمعانى يستدعى بعضها بعضا استدعاء نفسيا لامنطقيا . وقد جرى الشعراء على أنهم ، إذ يعارضون « أساتذة » الشعر فى قصائدهم ، يستقصون المعانى التى تقال فى الموضوع ، وقليل منهم من يمحصها فلا يجعلها تبدو خليطا مضطربا .

عبد المطلب المعلم

لم ينس عبد المطلب أنه كان ذا رسالتين رسالة الشعر إلى الأدباء، ورسالة العلم إلى التلاميذ، وقد كان في شعره معلما كما كان في تعليمه شاعرا. وقد وصف المعلم والقلم في عدة مواضع من ديوانه جاءت جميعها آية في الصدق والبلاغة وحسبنا منها قوله (ص ١١١ - ١١٢)

بنى مصر، مابال المعلم كاسفا يرى الناس فيها يكبرون ويصغر ؟
سبيل النبيين الكرام سبيله يعم بها الدنيا صلاحا فتقمر
سلوا عنه جنح الليل كم بات متعبا تنام حواليه النجوم ويسهر
سلوا عنه عينا قرح السهد جفنها يخط عليها في الظلام ويسطر
سلوا عنه جسما بات بالسقم ناحلا فلا البرء مأمول ولا هو يعذر
سلوا عنه أسفارا قضى الليل بينها غريبا عن الدنيا وأهلوه حضر
سلوا عنه قلبابات يخفق رحمة على فتية من حوله تتضور
... ...
فيامصر إن عز الوفاء فاننا على العهد لانلوى ولا نتغير
أنخذل مصرا في بنيها وهذه ذئاب الليالى حولها تتنمر ؟
بنوها بنونا، والمدارس دورنا لها كل ما نقنو وما نتخير
عهود كتبنا عقدها في ضمائر على الصدق يطويها الوفاء وينشر

هذا ديوان عبد المطلب نقدمه لقراء «صحيفة دار العلوم» في كلمة عجلى راجين أن يتقدم لخدمة هذا الديوان من هم أقدر منا على دراسته. وأوسع زمنا لاستقصاء مافيه. وحسب عبد المطلب منا أن نستعير بيانه لنقول فيه ما قال هو في حافظ ابراهيم (ص ٢١٣):

يراعته سحر البيان لعابها ومقوله سيف أعز صقيل
يصول بمضمار البيان مجليا فيجلو قناع الشك حين يصول
تراه اجتلى أبكارها عربية لها غرر وضاحة وحجول
حجازية الألفاظ قد سبقت لها مطارف من إحسانه وذيول